

مقاطعة إفريقية البيزنطية في مواجهة الفتح الإسلامي

(استراتيجية المقاومة وعوامل الفشل)

Byzantine Africa and the Islamic Conquest (The strategy of resistance and the factors of failure)

مباركية منصف ♦ كلية الآداب والحضارة الإسلامية – جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية قسنطينة
memoncef40@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2023/09/17 تاريخ القبول: 2024/05/26 تاريخ النشر: 2024/06/30

الملخص باللغة العربية:

مع انقضاء موجة الفتوح الإسلامية الكبرى في الشرق على حساب ممتلكات الإمبراطورية البيزنطية في الشام ومصر، انتقل الصراع بين الطرفين إلى مقاطعة إفريقية، حيث أصبحت أراضي الأروحية ميدانا لمواجهات طويلة وعنيفة بين المسلمين والبيزنطيين استمرت حوالي نصف قرن، حاولت خلالها مقاطعة إفريقية بناء استراتيجية دفاع فعالة في مواجهة التهديد الإسلامي، من خلال توظيف أساليب متنوعة ارتكزت أساسا على تجنب المواجهة المباشرة مع قوات المسلمين المتدفقة على المنطقة، واستمالة البربر والتحالف معهم ضد خصومها. لكن هذه الاستراتيجية لم تسعف المقاطعة البيزنطية لتحقيق نجاح دائم في مواجهة الجيوش الإسلامية، حيث أدت العلاقات المضطربة التي جمعتها بالقسطنطينية على خلفية الصراعات الدينية بينهما، وسلبية موقف الإمبراطورية من التهديد الإسلامي لمقاطعتها في إفريقية، بالإضافة إلى عدم تماسك التحالف البيزنطي البربري في المنطقة، إلى فشل المقاومة وسقوط الأروحية في النهاية. الكلمات المفتاحية: إفريقية؛ البيزنطيون؛ المسلمون؛ البربر؛ قرطاج.

Abstract: After the Great Islamic Conquest in the East (Syria and Egypt), the conflict between Muslims and Byzantines shifted to the North Africa, where the territory of the exerchat became the field of a long confrontations between Caliphate and Byzantine Empire for about a half century. The Byzantine North African province has tried to develop an effective defence strategy against face the Arab threat, by employing a variety of tactics based mainly

♦ المؤلف المرسل

on avoiding open combat with the Arab forces, and gain an alliance with the Berbers against Muslims.

These efforts in fact, however, did not help the Exerchat to achieve lasting success against Muslims armies. This is due to many reasons, such as the turbulent relations between Exerchat and Constantinople because of their religious discord, as well as the passive attitude of the Empire towards the Arab threat to its North Africa province, and the lack of cohesion of the Byzantine-Berbers alliance, which led to the fall of Byzantine Africa to Muslims.

Keywords: Africa; Byzantines; Muslims; Berbers; Carthage.

مقدمة:

كانت معركة مؤتة سنة 8هـ (629م) أول احتكاك عسكري بين المسلمين والبيزنطيين¹، وبعد هذه المواجهة بأقل من عقد استطاع المسلمون انتزاع كل ممتلكات بيزنطة في الشام ومصر ليتطلعوا بعدها لاستكمال فتح ما بقي للروم من مناطق في شمال إفريقيا، ولأن كانت الجولة الأولى من المواجهة بين الطرفين في الشرق خاطفة ولم تكلف المسلمين إلا سنوات قليلة وبعض المعارك الحاسمة لإنهاء الصراع لصالحهم، فإن مشروع فتح إفريقية في الغرب قد استهلك وقتا وجهدا كبيرين امتد لأكثر من نصف قرن، وهذا المقال يتناول بالدراسة الصراع الذي دار بين الطرفين في المنطقة، ويشمل جغرافيا المقاطعة التي كانت خاضعة لسيادة بيزنطة، والأحداث المرتبطة به، من خلال التركيز على كيفية تفاعل البيزنطيين مع محاولات المسلمين القضاء على ما بقي لهم من نفوذ في جنوب البحر الأبيض المتوسط. وتدور إشكالية الموضوع حول الاستراتيجية التي تبنتها مقاطعة إفريقية البيزنطية في مواجهة الحملات الإسلامية التي استهدفتها؟ وعوامل فشل المقاومة في التصدي للمد الإسلامي؟

إن محاولة معالجة هذه الإشكالية على ضوء المعطيات المتوفرة في المصادر، والتي تقتقد إلى الكثير من التفاصيل الحيوية للأحداث التي شهدتها الفتح الإسلامي للمنطقة مع إهمالها الإشارة إلى طبيعة البنية العسكرية والسياسية لإفريقية البيزنطية خلال تلك الفترة، يطرح الكثير من التحديات ويدفعنا إلى الاعتماد بالدرجة الأولى على الاستنباط من خلال الارتكاز على تحليل المعطيات القليلة والمتفرقة المتوفرة عن المواجهات بين

1- خليفة بن خياط، تاريخ خليفة بن خياط، تحقيق أكرم ضياء العمري، ط 2، دار طيبة، الرياض، 1985، ص 86-87.

الطرفين من أجل بناء تصور منطقي عن الأحداث لتوفير إجابة موضوعية عن التساؤلات المطروحة.

يهدف هذا المقال إلى تسليط الضوء على أساليب المواجهة التي اعتمدتها مقاطعة إفريقية البيزنطية في التعامل مع التهديد الإسلامي، مع تحليل أسباب فشلها في الحفاظ على وجودها ما أدى إلى فقدان بيزنطة أهم مراكزها في الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط. وذلك بالاعتماد على تحليل أخبار الروايات التاريخية التي جاءت بها مختلف المصادر.

1- حدود إفريقية البيزنطية، ووضعيتها عشية بداية الفتح الإسلامي:

1.1- حدود المقاطعة:

كانت بيزنطة تعتبر نفسها الوريث الشرعي للإمبراطورية الرومانية الغربية المتداعية، ومن واجبها استرجاع أراضيها المغتصبة من طرف القبائل الجرمانية في الغرب، ومثلت إفريقية المحطة الأولى في مشروع إحياء الإمبراطورية العالمية التي حلم بها الامبراطور جستنيان Justinian²، فقام بإرسال حملة عسكرية معتبرة سنة 533م بقيادة بلزاريوس Belsarius³ للقضاء على حكم الوندال بها الذي امتد لأكثر من قرن بقليل بين 429-534م، انتهت بضم المنطقة إلى ممتلكاتها وصولاً إلى سبتة عند مضيق جبل طارق، وجزر الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط، سردينيا، كورسيكا، والبلبار⁴.

2- امبراطور بيزنطي، تولى الحكم بعد خاله جستين الأول Justin I بين 527-565م، شهد عهده إصلاحات إدارية وتشريعية واسعة، ونهضة عمرانية كبيرة، ونزعة قوية نحو الحروب حيث دخل في صراع كبير مع الفرس شرقاً، والأقوام الجرمانية غرباً استطاع من خلالها استرداد أجزاء من شمال إفريقيا وإيطاليا وإسبانيا لصالح الإمبراطورية البيزنطية (محمود سعيد عمران، معالم تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 2000، ص 46-51-52-53-54-55-56-57-59).

3- قائد عسكري بيزنطي، اشتهر بكفاءته العالية في قيادة الجيوش وانتصاراته العديدة في عهد الامبراطور جستنيان الأول حتى أصبح أهم قادة جيوشه، كان أول ظهور لافت له في الحروب ضد الفرس عندما استطاع التصدي للقوات الفارسية وهزيمة حليفهم المنذر اللخمي في الشام سنة 530م، قاد لاحقاً عمليات قمع ثورة نيقا بالقسطنطينية سنة 532م، وتعد حروبه ضد الجرمان في الغرب أهم إنجازاته، حيث ساهمت انتصاراته ضد الوندال بإفريقيا الشمالية سنة 533م، وضد القوط بإيطاليا سنة 536م، في استرجاع قسم من هذه المناطق لسيادة الإمبراطورية البيزنطية. (محمود سعيد عمران، المرجع نفسه، ص 47-54-56-58)

4- Warren Treadgold, A History of Byzantine State and Society, Stanford University Press, California, 1997. p 185.

رغم الانتصار الكبير الذي حققه البيزنطيون على حساب الوندال في إفريقية، إلا أنهم لم ينجحوا مطلقاً في احتلال كل الأراضي التي كانت تحت سيطرة الرومان من قبل⁵ بسبب مقاومة البربر لسياسة التوسع البيزنطي في المنطقة، وبقيت مناطق سيادة الإمبراطورية محدودة وتكاد تماثل المجال الجغرافي الذي كان تحت حكم الوندال قبلهم. ونمتلك في هذا الصدد وثيقة مهمة جداً تعود لجورج القبرصي George de Chypre، تمّ تأليفها أوائل القرن السابع الميلادي تظهر أن إفريقية في عهد الإمبراطور موريس Maurice (582-602م)⁶ لم تكن أبداً كما حلم بها جستنيان. في الواقع فقط المقاطعات الثلاث، البروقنصلية Proconsulaire، بيزاسينا Byzacène (مزاقي)، ونوميديا Numidie، حافظت على حدودها القديمة، في حين تقلصت موريطانيا السطيفية واندثرت موريطانيا القيصرية، وتمّ فصل إقليم طرابلس عن المقاطعة وإحاقه بأسقفية مصر. وفي المحصلة لم تكن إفريقية مطلع القرن السابع أكثر اتساعاً من نظيرتها في عهد الوندال، إذ أن كل المناطق الغربية، باستثناء بعض المواقع الساحلية، كانت خاضعة لقادة محليين مستقلين⁷ أسسوا بها إمارات عديدة أهمها، حسب القائمة التي وضعها المؤرخ الفرنسي كريستان كورتوا Courtois استناداً إلى الإشارات الواردة عند بروكوب وكوريب، إمارة ألتافا، وإمارة الونشريس، وإمارة الحضنة، وإمارة ولبلي⁸.

في حدود منتصف القرن السابع الميلادي (مباشرة قبيل بداية الفتح العربي) كانت السيادة البيزنطية تشمل معظم أجزاء الأراضي التي كانت تحت سيطرة سلطة الإمبراطورية الرومانية في إفريقية قبل ذلك بقرن، ففي الشرق كانت الحاميات البيزنطية تحتل المدن

5- The Cambridge History of the Byzantine Empire c. 500-1492, Edited by Jonathan Shepard, Cambridge University Press, UK 2008. p 203.

6- إمبراطور بيزنطي تولى الحكم بين 582-602م، انضم في بداياته للإدارة القضائية ثم التحق بالجيش وتدرج في الرتب حتى أصبح قائد الحرس الإمبراطوري، توجّ إمبراطوراً خلفاً لصهره طيبيريوس، حاول إصلاح شؤون الإمبراطورية المضطربة من خلال اعتماد إصلاحات إدارية وعسكرية ومالية. (محمود سعيد عمران، المرجع السابق، ص 63).

7- Belkhodja, L'Afrique byzantine à la fin du VIe et au début du VIIe siècle, Revue de l'occident musulman et de la méditerranée, N° 8, 1970. p 57.

8- عبد الله العروي، مجمل تاريخ المغرب، ط 5، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء-بيروت، 1996، ص 112-113.

الساحلية في إقليم طرابلس⁹، وفي الجنوب امتدت حدود بيزانسيا (مزاقي) إلى الضفاف الشمالية للشطوط، وفي نوميديا احتفظ البيزنطيون بالقلع القوية التي بنيت في القرن السادس على سفوح جبال الأوراس مثل باغاي وتيمقاد ولاميس، بينما توقفوا منذ مدة على ما يبدو عن السيطرة المباشرة على الحصنة منذ احتفظت ديبلوماسيتهم بتأثير حقيقي على السكان الذين يستوطنون الزاب وموريطانيا القيصرية وكان معظمهم مسيحيين، وكسبت حلفاء بين الامارات الكبرى الأهلية¹⁰. وتؤكد المصادر الإسلامية بدورها هذه الوضعية حين تذكر أن مناطق سيطرة حاكم إفريقية قبل الفتح كانت تمتد من طرابلس إلى طنجة¹¹.

2.1- وضعية أرخونية إفريقية عشية الفتح الإسلامي:

رغم أن الوضع في إفريقية البيزنطية خلال نصف القرن الذي سبق بداية الفتح الإسلامي يبقى غامضا عموما، حيث لا نملك للأسف معلومات مفصلة حول وضعية المقاطعة خلال هذه الفترة، إلا أننا نعرف مع ذلك أنها كانت تعيش حالة من الهدوء والاستقرار الأمني على الأقل منذ آخر تهديد واجهها من طرف البربر سنة 595م عندما قاموا بثورة عنيفة ضد البيزنطيين وصلت حتى أسوار قرطاجة¹². كما أن إصلاحات الامبراطور موريس قد ساعدت على ازدهار المقاطعة ما مكنها من لعب دور حاسم في الإطاحة

9- مدينة بأول أرض إفريقية مما يلي برقة تعرف أيضا باسم أطرابلس، تقع على البحر ويحيط بها سور متين، فتحها عمرو بن العاص في خلافة عمر بن الخطاب (13-23هـ/634-644م). (ياقوت الحموي شهاب الدين، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، 1977، مج 1، ص 217؛ مج 4، ص 25).

10- Charles Diehl, L'Afrique Byzantine, Histoire de la domination Byzantine en Afrique (533-709), Ernest Leroux, Paris, 1896. p 535-536.

11- ابن عبد الحكم عبد الرحمن، فتوح مصر وأخبارها، تحقيق وتقديم محمد الحجيري، ط 1، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1996، ص 312 / المالكي عبد الله بن محمد، رياض النفوس، حققه بشير البكوش، راجعه محمد العروسي المطوي، ج 1، ط 2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1994، ص 19-20.

12- مدينة عظيمة بإفريقية على ساحل البحر، كانت عاصمة البلاد، تعرضت للتخريب بعد فتحها على يد حسان بن النعمان في خلافة عبد الملك بن مروان (65-86هـ/685-705م) وتم بناء مدينة تونس على بعد اثنا عشر ميلا منها ببقايا حجاريتها ورخامها. (ياقوت الحموي، المصدر السابق، مج 4، ص 323).

بالامبراطور فوكاس Phocas¹³ على يد هرقل Héraclius¹⁴ ابن قائد الأرخونية Exarchat سنة 610م، ما يعتبر شاهداً على تماسك وحيوية مقاطعة إفريقية وإمكاناتها المعتبرة، أما من الناحية الاقتصادية فيبدو أن الوضع كان جيداً والزراعة منتعشة، فقد استمرت المقاطعة في تزويد القسطنطينية¹⁵ بالقمح حتى سنة 608م عندما أوقف هرقل الأب الامدادات للعاصمة على خلفية ثورته ضد فوكاس¹⁶، كما أن حجم الغنائم والحزبة التي حصلها المسلمون من حملتهم الأولى على البلاد منتصف القرن السابع الميلادي يبين مدى ثرائها¹⁷.

غيّرت السياسات الدينية التي تبنتها الإمبراطورية منذ أواخر العقد الرابع للقرن السابع الميلادي، والتي تزامنت مع صعود التهديد العربي للإمبراطورية، مصر المقاطعة، حيث أدى مرسوم الامبراطور هرقل سنة 638م (17هـ) الذي ينص على وحدة المشيئة عند المسيح مع الاحتفاظ بعقيدة الطبيعة المزدوجة، إلى اندلاع أزمة وحدة

13- امبراطور بيزنطي حكم بين 602-610م، تولى العرش بعد تمرد قاده ضد الامبراطور موريس، عرفت الإمبراطورية البيزنطية في فترة حكمه القصيرة عدم استقرار داخلي وفقدان معظم الأقاليم الشرقية لصالح الفرس. (محمود سعيد عمران، المرجع السابق، ص 64-65).

14- امبراطور بيزنطي (610-641م) مؤسس الأسرة الهرقلية بعد الإطاحة بالامبراطور فوكاس سنة 610م، شهدت بداية حكمه أزمة اقتصادية وفقدان الإمبراطورية كل أقاليمها الشرقية في مواجهة الفرس، مع تصاعد تهديد شعوب الآفار والسلاف في البلقان، لكنه استطاع بعد جهود كبيرة تحييد خطر الفرس سنة 627م، شهدت فترة النصف الثاني من حكمه بداية حركة الفتوحات الإسلامية، ورغم الجهود التي بذلها لم يستطع وقف تقدم المسلمين الذين استولوا على الشام وتوغلوا في مصر بين سنتي 634-640م. (محمود سعيد عمران، المرجع نفسه، ص 69-70-71-73-76-78-79).

15- دار مُلك الروم، كانت تعرف بيزنطية سابقا حتى انتقل إليها قسطنطين الأكبر فعمرها وبني عليها سورا وسماها القسطنطينية على اسمه، وهي مدينة عظيمة يحيط بها البحر من الشمال والشرق، ولها أسوار سمكية من جهة البر والبحر، وأبواب كثيرة أشهرها باب الذهب، تتمتع بموقع مميز يربط بين أوروبا وآسيا على نتوء (رأس) ضيق يسهل الدفاع عنه، وفي الجانب الشمالي منها يوجد القرن الذهبي أحد أفضل الموانئ الطبيعية في العالم. (البكري أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز، المسالك والممالك، تحقيق جمال طلبة، ط 1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2003، ج 2، ص 46 / ياقوت الحموي، المصدر السابق، مج 4، ص 347 / Timothy Venning, A Chronology of the Byzantine Empire, Palgrave Macmillan, New York, 2006. p XV 16- Belkhodja, Op cit. p 58-59-60-61.

17- ابن عبد الحكم، المصدر السابق، ص 312.

المشيئة (المونوثيلية) Monothélisme¹⁸، وكان لهذه الأزمة انعكاسات ثقيلة حيث باعدت بين إفريقية والقسطنطينية في حين عززت الروابط مع روما، ما هيأ الظروف لدعم انشقاق الأرخون (الأكرخ Exarque) غريغوار Grégoire (جرجير في المصادر العربية) سنة 646م (25 هـ) الذي تزعم المقاومة ضد المونوثيلية، وبدعم من البابا وكل المتذمرين أعلن نفسه امبراطورا¹⁹.

انخرط السكان على ما يبدو بحماس في الثورة، ويظهر أن الأفارقة المترومين لم يكونوا وحدهم فقط من ساند الحاكم، بل حتى القبائل البربرية أخذت جانب الأرخون (الأكرخ). في تمرده ضد الإمبراطورية، وربما من أجل التقرب من حلفائه قام غريغوار بالانتقال من قرطاجة ليستقر في مدينة سيطة Sufetula²⁰، وأيضا من أجل الاستفادة من موقعها الاستراتيجي في الدفاع عن ملكه المستجد ضد العدو الذي كان قد بدأ يهدده بالفعل²¹، حيث يستطيع انطلاقا من موقعها محاولة إيقاف تقدم المسلمين وحماية مركز

18- جان كلود شينيه، تاريخ بيزنطية، ترجمة جورج زيناتي، ط 1، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، 2008، ص 55.

وحدة المشيئة Monothelism: مذهب أقره الامبراطور هرقل بالتعاون مع بطريرك القسطنطينية سرجيوس Sergius سنة 638م (17هـ) في إعلان Ecthesis يقضي بأن للمسيح طبيعتين (إلهية وإنسانية) ومشيئة (إرادة) واحدة إلهية، وهو مذهب توفيق بين أنصار وحدة الطبيعة الإلهية في المسيح وأنصار مجمع خلقدونية القائل بالطبعيتين. (J. B. Bury, A History of Later Roman Empire, Macmillan and co, London 1889. Vol 2, p 249-250-253).

19- Belkhodja, Op cit. p 64.

الأرخون Exarch: لقب أطلق على حكام المقاطعات الغربية في الإمبراطورية البيزنطية، إيطاليا وإفريقية، كانت تُسند لهم صلاحيات عسكرية وإدارية ومالية، ظهر هذا التنظيم في إيطاليا أولا خلال القرن السادس ثم طُبّق في إفريقية بعد الإصلاحات التي أحدثها الامبراطور موريس أواخر القرن. (عائشة سعيد شحاته، الإمبراطورية البيزنطية في القرن السابع الميلادي / الأول الهجري، دراسة في التطورات والتغيرات، ط 1، دار المفردات للنشر والتوزيع، الرياض، 1995، ص 119-126).

20- من أكبر مدن إفريقية وأحسنها حالا، كانت مقر حكم جرجير وافتتحها المسلمون في عهده، تبعد عن القيروان سبعون ميلا. (الإدريسي، محمد بن محمد، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2002، مج 1، ص 283 / ياقوت الحموي، المصدر السابق، مج 3، ص 187).

21 - Charles Diehl, Op cit. p 557.

المقاطعة وشمال نوميديا، ويبقى في اتصال مع المناطق الأخرى الخاضعة للسيطرة البيزنطية²².

لقد كان لهذه التحولات عشية بداية الفتح الإسلامي لإفريقية أثر كبير في تغير مجرى الأحداث بالنسبة للأرخونية، إذ سيجد قائدها غريغوار نفسه وحيدا في مواجهة التحدي الإسلامي، ومحروما من كل دعم ممكن من طرف القسطنطينية بعد انشاققه عن الإمبراطورية.

2- استراتيجية الأرخونية في مواجهة الحملات الإسلامية:

اعتمدت أرخونية Exarchat إفريقية على استراتيجيات وأساليب متنوعة في مواجهة المد الإسلامي، وذلك حسب الظروف التي كانت تمر بها وقدراتها الذاتية التي كانت تتوفر عليها. وفي ظل التفوق الصريح للمسلمين، فقد بنت المقاطعة البيزنطية مقاومتها على محورين أساسيين تمثلا في الاتجاه إلى الاقتصاد في المجهود الحربي في مواجهة عمليات الفتح الإسلامي، مع الاعتماد أكثر على استقطاب دعم البربر في هذا الصراع الطويل والمرير مع المسلمين في المنطقة.

2.1- تعديل الاستراتيجية العسكرية:

غيّرت نتائج معركة سببلة معطيات الصراع تماما في المنطقة بين البيزنطيين والمسلمين، فقد أدّت الصدمة الكبيرة التي تلقتها القوات البيزنطية في هذه المواجهة إلى تحطيم قوام الجيش البيزنطي في إفريقية والذي لم يُعد تشكيله مجددا أبدا²³، ونلاحظ بعدها أن طبيعة المواجهات بين البيزنطيين والمسلمين قد تغيرت، حيث أصبح واضحا أن القوات البيزنطية -الضعيفة والمشتتة- كانت تتجنب الانخراط في معارك مباشرة (مفتوحة) مع القوات الإسلامية التي كانت تتوافد على المنطقة، حيث غابت عنها روح المبادرة ما يدل على رغبتها في تجنب المواجهة. وطيلة ثلاثة عقود بعد استئفاف

22- walter E. Kaegi, Muslim Expansion and Byzantine Collapse in North Africa, Cambridge University Press, New York, 2010. p 130.

23- The Cambridge history of islam, Edited by P. M. Holt, ANN K. S. Lambton, Bernard Lewis Volume 2A, Cambridge University Press, UK. p 212.

المسلمين عملياتهم في منطقة المغرب، منذ حملة معاوية بن حديج²⁴ سنة 45هـ (665م) حتى الاستيلاء على قرطاجة أواخر العقد السابع الهجري، لم نسجل (فيما هو متوفر من معلومات) إلا نادرا بعض المواجهات المفتوحة التي بادر بها البيزنطيون لإيقاف زحف المسلمين على إفريقية، مثل الاشتباكات التي حدثت بالقرب من الحصون الرئيسية في الأوراس بدعم من البربر أثناء حملة عقبة بن نافع²⁵، أو المعركة الفاصلة عند أسوار قرطاجة عندما حاول جيش من عشرة آلاف إلى خمسة عشر ألف رجل التصدي لحملة حسان بن النعمان التي استهدفت المدينة²⁶، بالإضافة إلى المواجهات في صطفورة شمالا بعدها بقليل²⁷. وما عدا هذه الأمثلة كانت الجيوش الإسلامية بعد عودتها للنشاط من جديد في المنطقة تخترق مقاطعة بيزاسينا دون مقاومة ولا تصادف أي جيش بيزنطي منظم يعترضها، بل إن عقبة بن نافع استقر بالمنطقة مدة خمس سنوات كاملة شيد فيها أول قاعدة للمسلمين بإفريقية (القيروان)²⁸ دون أن يضطر إلى مواجهة البيزنطيين في معارك كبيرة، وبذل ذلك تحولت السياسة الحربية البيزنطية إلى التركيز على التحصن في المدن والقلاع، وشجعوا السكان المدنيين على الهروب بسرعة إلى الحصون والقلاع أو التلال والجبال، أو المدن المسورة في انتظار وصول النجدة العسكرية أو على أمل

24- صحابي من قبيلة كندة، شهد فتح الشام ومعركة اليرموك، استوطن مصر وتولى إمارتها في خلافة معاوية بن أبي سفيان. (ابن عساكر علي بن الحسن، تاريخ مدينة دمشق، دراسة وتحقيق عمر بن

غرامة العمري، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1995، ج 56، ص 15-19-23).

25- الرقيق القيرواني، تاريخ إفريقية والمغرب، تقديم وتحقيق محمد زينهم محمد عزب، ط 1، دار الفرجاني للنشر والتوزيع، القاهرة، 1994، ص 42 / المالكي، المصدر السابق، ج 1، ص 35-36. عقبة بن نافع الفهري، من التابعين شهد فتح مصر وسكن بها، ولي إفريقية وبنى بها القيروان سنة 50هـ (670م)، قاد جيوش الفتح بالمغرب ولها بها فتوح مشهودة، استشهد بتهودة سنة 63هـ (683م) في مواجهة البربر. (ابن عساكر، المصدر نفسه، ج 40، ص 525-527-531-535).

26- N. Stratos, Byzantium in the seventh century, V 5, Adolf M. Hakkert, Amsterdam, 1980. p 79.

حسان بن النعمان الفساني، من قادة فتح بلاد المغرب، تولى إمارة إفريقية في عهد عبد الملك بن مروان (65-86هـ/685-705م)، فكان له بها فتوحا عديدة، لكنه واجه مقاومة عنيفة من البربر بقيادة الكاهنة. (ابن عساكر، المصدر نفسه، ج 12، ص 450-451).

27- المالكي، المصدر السابق، ج 1، ص 49.

28- مدينة إفريقية أسسها عقبة بن نافع في موضع داخل البلاد اختاره بعيدا عن الساحل تجنبا لاستهدافها من الروم، واستغرق بنائها خمس سنوات بين 50-55هـ (670-674م) عرفت المدينة لاحقا ازدهارا كبيرا حتى أصبحت أكبر مدن بلاد المغرب. (ياقوت الحموي، المصدر السابق، مج 4، ص 420-421).

انسحاب الغزاة بسبب الانهك أو الإحباط أو عبر المفاوضات. ويتوافق هذا التكتيك الذي تبناه البيزنطيون تجاه المسلمين مع ما كانوا يستخدمونه من قبل ضد القبائل الأصلية في شمال إفريقيا²⁹، وهكذا أصبحت الأولوية الاحتفاظ بالمراكز البيزنطية الرئيسية في المنطقة والدفاع عنها لتجنب الانهيار الكامل بدل تعبئة القوات في الميدان والالتحام المباشر لصد ورد الحملات الإسلامية.

مع التحول في أساليب المواجهة، عمل البيزنطيون أيضا على استغلال الخصائص الطبيعية للمناطق الشمالية التي تتميز بطابعها الجلي الوعر في محاولة عرقلة حركة الجيوش الإسلامية في المنطقة للحد من توغلاتها وتقليص مجال عملياتها، فكانوا يستخدمون أسلوب سد الدروب كلما كان ممكنا لإغلاق ممرات الغزو³⁰، أو التحرش بقوات المسلمين التي تمر بالمراكز البيزنطية (حصون - قلاع - مدن) التي تنتشر على طول طرق المواصلات الرئيسية باتجاه البروقنصلية ونوميديا. وفي هذا الصدد نسجل في المصادر أخبارا عن مواجهات عنيفة صادفها المسلمون أمام هذه المراكز أثناء محاولة مد عملياتهم إلى الشمال مثل جلولاء³¹، وقلعة زغوان³²، وأيضا إلى الغرب مع بداية توغلهم في الأوراس مثل باغاي³³، ولميس (لامبيس)³⁴.

عمل البيزنطيون أيضا بالموازاة مع التحول في أساليب المجابهة من خلال تجنب المواجهة المباشرة مع القوات الإسلامية التي تنفذ عملياتها في المنطقة، على استرجاع المراكز المهمة التي فقدوها مباشرة بعد انسحاب المسلمين، فطرابلس مثلا التي تم فتحها سنة 22هـ (643م) نعلم أنها رجعت للسيادة البيزنطية بعد ذلك بقليل، إذ نجد أن سكانها قد امتنعوا وتحصنوا بالمدينة في مواجهة جيش المسلمين الذي بدأ نشاطه في المنطقة خلال حملة عبد الله بن سعد على إفريقية سنة 27هـ (648م)³⁵، وقام الامبراطور قنسطانز

29- Walter E. Kaegi, Op cit. p 161.

30- Ibid. p 161.

31- ابن عبد الحكم، المصدر السابق، ص 329.

جلولاء: مدينة مشهورة بإفريقية قديمة البناء، تبعد عن القيروان بأربعة وعشرون ميلا، فتحت على يد عبد الملك بن مروان في حملة معاوية بن حديج على إفريقية سنة 45هـ (665م). (ياقوت الحموي، المصدر السابق، مج 2، ص 156).

32- المالكي، المصدر السابق، ج 1، ص 57.

33- الرقيق القيرواني، المصدر السابق، ص 42.

34- المالكي، المصدر السابق، ج 1، ص 35-36.

35- المالكي، المصدر نفسه، ج 1، ص 17.

الثاني Constans II³⁶ في الفترة بين العقد الخامس وبداية العقد السادس من القرن السابع الميلادي بتعيين قائد من أصول أرمنية يدعى نارسه كامسراكان Narsah Kamsarakan لإدارة ما بقي من ممتلكات بيزنطة في إقليم طرابلس³⁷، أما قرطاجنة (قرطاجنة) التي سقطت في يد المسلمين فقد تم استرجاعها هي كذلك لفترة وجيزة بعد هزيمة حسان بن النعمان أمام الكاهنة³⁸، مع العديد من المناطق المجاورة والمدن الأخرى أيضا³⁹، بل ويعتقد ديل Diehl أن البيزنطيين ربما قد اغتنموا الاضطرابات التي أعقبت قضاء المسلمين على كسيلة لاستعادة سيادتهم على بيزاسينا، اعتمادا على ما جاء في كتاب الباباوات *Liber Pontificalis* الذي يذكر أنه حوالي سنة 685م (65-66هـ) «خضعت كل إفريقية من جديد للإمبراطورية البيزنطية»⁴⁰. لكن لا يمكن بناء حكم قطعي حول حقيقة استرجاع بيزنطة سيادتها على كل المقاطعة استنادا إلى هذه الرواية في ظل المعطيات المتوفرة في المصادر الإسلامية عن استمرار التواجد الإسلامي في إفريقية خلال هذه الفترة أيضا، فالقيروان رجعت من جديد لسيطرة المسلمين بعد تحييد كسيلة، ورغم أنها كانت تضم حامية محدودة جدا⁴¹ لم تتعرض لأي هجوم بيزنطي.

إن هذه الاستراتيجية "الموضوعية في الحقيقة" القائمة على اقتصاد المجهود الحربي في مواجهة المسلمين فرضتها الأوضاع التي كانت عليها الأرمنية، إذ لم يكن بها ما يكفي من قوات للتصدي للمسلمين في مواجهة مباشرة بعد أن أدت معركة سيطلة إلى القضاء على قسم معتبر من الجيش البيزنطي، وتلك القوات كانت في الحقيقة غير منظمة وتفتقر للتنسيق، وحتى بعد أن عادت مقاطعة إفريقية إلى الاعتراف رسميا، ولكن اسميا فقط،

عبد الله بن سعد بن أبي سرح القرشي، شهد فتح مصر وتولى إمارتها في عهد الخليفة عثمان بن عفان (23-25هـ/644-656م) لعب دورا مهما في الفتوحات، حيث قاد أول حملة لفتح إفريقية سنة 27هـ (648م) وشارك على رأس الأسطول الإسلامي في معركة ذات الصواري الشهيرة ضد البيزنطيين. (ابن عساكر، المصدر السابق، ج 29، ص 22-26).

36- ثالث أباطرة الأسرة الهرقلية، وحفيد مؤسسها "هرقل" تولى السلطة أواخر سنة 641م (41هـ) في سن الحادية عشر، توفي مقتولا على يد أحد خدمه في صقلية سنة 668م (48هـ). (George Ostrogorsky, History of the Byzantine State, Translated by Joan Hussey, Basil Blackwell. Oxford, 1968. p 114-123)

37- walter E. Kaegi, Op cit. p 147-148.

38 - حسين مؤنس، فتح العرب للمغرب، مكتبة الثقافة الدينية، ص 254.

39- Walter E. Kaegi, Op cit. p 247-248.

40- Charles Diehl, Op cit. p 581-582.

41 - الرقيق القيرواني، المصدر السابق، ص 45.

بسلطة الامبراطور بعد تحييد المنشق غريغوار إلا أنها لم تتلق أي مساعدات من طرف القسطنطينية طوال العقدين الذين أعقبا معركة سيطة.

2.2- التحالف مع البربر:

كانت بداية العلاقات بين البيزنطيين والبربر مضطربة، حيث عرفت العقود التي تلت استيلاء الامبراطورية البيزنطية على مقاطعة إفريقية حتى نهاية القرن السادس الميلادي صدمات عنيفة وطويلة مع السكان المحليين امتدت من اقليم طرابلس ومزاق (بيزاسينا) وصولا إلى الأوراس⁴²، وبلغ بعض هذه الانتفاضات أسوار قرطاجة نفسها كالتي حدثت سنة 595م⁴³، قبل أن تعرف العلاقات بين الطرفين بعض الهدوء والاستقرار بعد ذلك خلال القرن السابع الميلادي، وقد استطاعت بيزنطة أن تحقق تقاربا مهما مع البربر بفضل الروابط الدينية التي أقامتها بعد انتشار المسيحية في أوساط السكان المحليين، حيث كان الدين في أكثر من مرة يعزز روابط التبعية التي أسستها بيزنطة مع القبائل المحلية⁴⁴، وقد أتاح هذا الاستقرار في العلاقات بين الطرفين لحكام المقاطعة تجنيد البربر والاستفادة من قدراتهم القتالية، إذ نجد الأرخون (الأكرخ) هرقل Héraclius مثلا، بعد ثورته على الامبراطور فوكاس سنة 610م، يقوم بضم فرق من البربر ضمن الجيش الذي أرسله لاحتلال مصر بقيادة ابن أخيه نيكيتاس Niketas⁴⁵، كما أن الحملة البحرية التي أرسلها لاحتلال القسطنطينية بقيادة ابنه هرقل ضمت أيضا عددا كبيرا من البربر حسب شهادة المؤرخ واسع الاطلاع يوحنا الأنطاكي John of Antioch⁴⁶. ولاحقا عندما أدت الخلافات الدينية المتصاعدة بين إفريقية والقسطنطينية، على خلفية أزمة وحدة المشيئة Monothélisme، إلى انشقاق غريغوار وإعلان نفسه امبراطورا وجد في البربر حليفا قويا في مواجهة غريمه قسطنطين الثاني Constans II، ويذكر المؤرخ الفرنسي ديل Diehl أن قبائل البربر انحازت إلى الأرخون (الأكرخ) في تمرده ضد الإمبراطورية⁴⁷.

إن العلاقة المتينة التي أسسها غريغوار مع قبائل البربر كانت ذات قيمة كبيرة لحاكم إفريقية وللبيزنطيين لاحقا، فبالإضافة إلى التأييد المطلق الذي تلقاه في مشروعه

42- محمد الهادي حارش، التاريخ المغاربي القديم، المؤسسة الجزائرية للطباعة، ص 271 وما بعدها.

43- Belkhodja, Op cit. p 58.

44- Charles Diehl : Op cit. p 329.

45- Belkhodja, Op cit. p 59.

46- Walter E. Kaegi : Heraclius Emperor of Byzantium, Cambridge University Press, Unitd Kingdom, 2003. p 45.

47- Charles Diehl, Op cit. p 557.

الانفصالي، سجنده يستفيد من دعمهم العسكري في مواجهة التهديد الإسلامي، أين شاركت قوات من البربر Moors، من نوميديا ومناطق أخرى من إفريقية البيزنطية، بجانب الأرخون (الأكرخ) في معركة سبيطلة رغم أن عددهم وانتهاءهم القبلي يبقى غير معروف⁴⁸، ومع تحطم جيش المقاطعة في أول احتكاك مباشر مع المسلمين، أصبحت الحاجة أكبر للاعتماد على البربر لتعويض فارق القوة مع العرب، لهذا نعتقد أن ديبلوماسية القيادة المحلية التي خلفت غريغوار في السلطة بعد معركة سبيطلة قد نشطت بشكل حثيث لتوثيق التحالف معهم وضمان تشكيل قوات دعم منهم عند الحاجة، خاصة أن أي مقاومة مستقبلية بعد كارثة سبيطلة كانت تتطلب الاعتماد على تجنيد قوة عسكرية في شمال إفريقيا أو قوات بيزنطية من خارج المنطقة في ظل صعوبة إعادة بناء قوات وقيادة محلية فعالة بعد القضاء على النخبة الحاكمة في إفريقية خلال المعركة⁴⁹. كما نعتقد أن هذه الجهود الدبلوماسية لاستمالة البربر قد أصبحت أكثر إلحاحا بعد تأسيس القيروان التي شكلت تهديدا مباشرا لمراكز البيزنطيين في الشمال (البروقنصلية)، ويمكن ملاحظة نتائج هذا التقارب على أرض الواقع بداية من مطلع العقد السادس الهجري (ثمانيات القرن السابع الميلادي).

يبدو أن البيزنطيين قد نجحوا في مسعاهم إلى حد كبير، إذ نسجل العديد من المواجهات التي شاركت فيها قوات محلية من البربر بجانب البيزنطيين ضد الجيوش الإسلامية، فالمصادر تذكر في أحداث حملة عقبة بن نافع نحو الغرب أنه صادف عند مدينة لميس (لامبيس) جيشا كثيفا ومقاومة شديدة بعد أن انضم إليها من حولها⁵⁰، ويُرجَّح أن هؤلاء الذين التحقوا بالقوات البيزنطية في المدينة للدفاع عنها هم من قبائل البربر التي تستوطن الأوراس، إذ لا يمكن عمليا أن تضم المراكز البيزنطية في المنطقة عددا كبيرا من القوات يسمح لها بتحدي جيش إسلامي يضم عدة آلاف من الجنود⁵¹. استمر هذا التعاون بين الطرفين حيث قدّم البربر ربما بعض التعزيزات للبيزنطيين أثناء

48- Walter E. Kaegi, Muslim Expansion. p 126-127.

49- Ibid. p 131.

50- الرقيق القيرواني، المصدر السابق، ص 42 / المالكي، المصدر السابق، ج 1، ص 35-36.
51 - تختلف المصادر في تحديد عدد القوات التي رافقت عقبة بن نافع في حملته على المغرب، فابن عبد الحكم يذكر أن جيشه ضم خمسة آلاف رجل فقط من أهل مصر (فتوح مصر، ص 337)، في حين يورد المالكي أن عقبة قدم إلى إفريقية مع عشرة آلاف فارس، فخرج بأصحابه وبكثير من أهل القيروان إلى المغرب (رياض النفوس، ج 1، ص 34) وهذه الرواية هي الأرجح، لأن العديد من المصادر التي لا تذكر شيئا عن تعداد جيش عقبة تشير مع ذلك أنه خرج في عدد كثيف.

الدفاع عن قرطاجة أمام حملة حسان بن النعمان⁵²، ونجدهم مرة أخرى يقاتلون بجانب الروم ضد المسلمين في منطقة صطفورة شمالا بعد سقوط قرطاجة (قرطاجنة) ما أدى إلى إلحاق متاعب وخسائر كبيرة بالمسلمين، قبل أن ينفصلوا عن البيزنطيين ويفروا نحو بونة (عنازة شرق الجزائر) للتحصن بها بعد الهزيمة التي تعرضوا لها⁵³.

مع هذا الاستقطاب للبربر الذي كان يقوم به البيزنطيون لدعم جهودهم القتالية في مواجهة المسلمين، عملوا أيضا على تحريض ودعم القبائل المحلية للتصدي للحملة الإسلامية من خلال تقديم النصح وربما الدعم المالي⁵⁴، حيث تذكر المصادر أن عقبة بن نافع صاعد عناصر من الروم ضمن القوات التي واجهته في المناطق التي كانت خاضعة للبربر وخارج مجال السيادة البيزنطية المباشرة في الزاب وتاهرت⁵⁵، كما أن القوات التي كان يقودها كسيلة حين أوقع بعقبة بن نافع وقتله في معركة تهودة، ثم زحف بها لاحتلال القيروان، ضمت أيضا عناصر من الروم⁵⁶ رغم أن عبد الله العروبي يفترض أنهم ربما كانوا عناصر يعملون لحسابهم الخاص بعد انهيار السلطة البيزنطية⁵⁷. وبلغ من اعتماد البيزنطيين على البربر في مقاومة المسلمين، خاصة بعد معركة سبيطة، أن أصبحت حسب بعض الدارسين المحدثين شديدة الارتباط بالمقاومة البربرية إلى حد التبعية⁵⁸.

3- عوامل الفشل:

سقطت قرطاجة أخيرا في يد المسلمين بعد نصف قرن من الاحتكاك الأول بالبيزنطيين في معركة سبيطة وبداية ارتيادهم المنطقة، ومثل هذا الحدث عمليا نهاية

52- Stratos, Op cit, V 5. p 79.

53- المالكي: المصدر السابق، ج 1، ص 49 / ابن عذاري أحمد بن محمد، البيان المغرب في اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب، تحقيق بشار عواد معروف ومحمود بشار عواد، مج 1، ط 1، دار الغرب الإسلامي، تونس، 2013، ص 61.

54- Walter E. Kaegi : Muslim Expansion. p 198.

55- نسجل تضاربا في الروايات بين المصادر، فالرفيق يذكر أن عقبة واجه البربر في الزاب (تاريخ إفريقية والمغرب، ص 43)، بينما يذكر المالكي أنه واجه فيها الروم (رياض النفوس، ج 1، ص 37)، ويتفق كليهما على أن الروم هم من استنجدوا بالبربر في معركة تاهرت رغم أن السيادة البيزنطية لم تشمل أبدا هذه المنطقة منذ استرجاعهم مقاطعة إفريقية.

56- ابن عبد الحكم، المصدر السابق، ص 335.

57- عبد الله العروبي: المرجع السابق، ص 123.

58- هشام جعيط، تأسيس الغرب الإسلامي، ط 2، دار الطليعة، بيروت، 2008، ص 16.

إفريقية البيزنطية، ويرجع فشل الأرخونية في وقف المد الإسلامي والحفاظ على وجودها إلى عوامل عديدة ذاتية وأخرى خارجية، يمكن حصرها في العناصر الآتية:

1.3- الصراعات الدينية:

كان للخلافات الدينية والسياسية مع القسطنطينية تأثير كبير على وضعية الاستقرار في إفريقية وطبيعة علاقاتها بالإمبراطورية، ما ساهم في إضعاف قدراتها وحظوظها في مواجهة المسلمين وحرّمها لمدة طويلة من التنسيق مع بيزنطة لصياغة استراتيجية فعالة لتنظيم الدفاع عن المقاطعة.

بدأت الخلافات الدينية بين مقاطعة إفريقية والقسطنطينية في وقت حساس جدا خيم فيه التهديد الإسلامي على الإمبراطورية، وكان لهذه الخلافات تداعيات كارثية على العلاقات بين الطرفين، فعلى خلفية رغبة الإمبراطور هرقل التوفيق بين مختلف الطوائف المسيحية داخل الإمبراطورية لدعم تماسك الجبهة الداخلية أصدر إعلان Ecthesis سنة 638م (17هـ) الذي ينص على وحدة المشيئة (المونوثيلية Monothelism) أكد فيه على أن للمسيح إرادة (مشيئة) واحدة مع طبيعتين⁵⁹، غير أن هذه الصيغة التوفيقية لاقت معارضة شديدة في الشرق والغرب، وفي إفريقية تمّ ادانة المونوثيلية بشدة وتعززت المقاومة فيها ضد المذهب الجديد مع قدوم الراهب مكسيم Maxime⁶⁰. وقد كان لهذه الخلافات تداعيات كارثية على إمكانية التنسيق بين القسطنطينية ومقاطعتها الإفريقية لمواجهة التقدم الإسلامي، وأحدث اضطرابا حتى في صفوف قادة الوحدات العسكرية البيزنطية المتمركزة في المنطقة الذين بدأوا يترددون في تطبيق الأوامر القادمة من الإمبراطور شخصيا بتحريض من رجال الدين، فعندما تلقى بيتر Peter قائد الجيش البيزنطي في نوميديا أمرا من هرقل للمساعدة في الدفاع عن مصر ضد الاجتياح العربي، طلب النصيحة من مكسيم؛ الذي كتب إليه ينهاه عن ذلك⁶¹.

لاحقا حوالي سنة 646م (25هـ) مال الإمبراطور قنسطانز الثاني أيضا نحو المونوثيلية في الوقت الذي كانت فيه إفريقية متمسكة بالعقيدة الأرثوذكسية (Orthodoxie)⁶²، وهكذا توجه معظم أساقفة إفريقية في نفس السنة، بعد أن راسلوا القسطنطينية يؤكدون

59- Warren Treadgold, Op cit. p 305.

60- Belkhodja, Op cit. p 63-64.

61- Walter E. Kaegi, Byzantium and the early islamic conquests, Cambridge University Press, 2000. p 217.

62- Charles Diehl, Op cit. p 556.

فيها عن عدائهم للمونوثيلية، إلى البابا ثيودور Theodore في روما مؤكدين خضوعهم الكامل لسلطته، وكان لهذه الأزمة انعكاسات ثقيلة حيث باعدت بين إفريقية والقسطنطينية في حين عززت الروابط مع روما⁶³. في النهاية شجع الاستياء العميق الذي أثارته الصراعات الدينية في المقاطعة ضد سلطة الامبراطور، الحاكم المحلي غريغوار على الانفصال عن الإمبراطورية⁶⁴، وقد أعاق هذا التمرد دفاعات المقاطعة، حيث لم يمكن للحكومة المركزية إرسال مساعدات على شكل فرق عسكرية وموئ للدفاع عن المقاطعة في حين أنها خاضعة لمتهمرد مغتصب للسلطة⁶⁵، كما أن السياسات الدينية من بين عوامل أخرى قد سممت العلاقات بين بيزنطة وسكان شمال إفريقيا وخلقت عوائق أمام أي دفاع مجدي⁶⁶، وقد خدم هذا الأمر المسلمين كثيرا وربما يكونون قد سعوا لاستغلال هذه الخلافات لاستمالة المسيحيين الساخطين على الامبراطور، وهناك من يفترض حتى في ظل نقص التوثيق أن المسلمين نجحوا في كسب تأييد المؤسسات الدينية المونوفيزية⁶⁷ (أنصار الطبيعة الواحدة للمسيح) في برقة، ويمكن أن تدعم إشارة المالكي حول وجود مستشار قبلي بجانب القائد المسلم عبد الله بن سعد سنة 647م (27هـ) هذه الفرضية، رغم أنه مصدر متأخر، والمصادر المتأخرة تنزع إلى المبالغة فيما يتعلق بتعاون الأقباط في حين لا تذكرها المصادر المعاصرة⁶⁸.

لم ينجح الامبراطور الشاب قنسطانز الثاني في وضع حد لهذه الخلافات والصراعات من خلال محاولة وضع مسار محايد عبر إصدار الإعلان الذي يعرف بـ (Edict) Type سنة 648م (27هـ)، والذي يمنع النقاش حول الإرادة والطبيعة التي يملكها المسيح، وعلى إثر ذلك بدأ مكسيم في روما، مع عدد من الرهبان اليونانيين الذين كانوا قد فروا إلى الغرب من العرب أو من هرطقة الإمبراطورية، التحضير لعقد مجمع مسكوني، والذي عقد أخيرا في سنة 649م (28هـ) تحت إشراف البابا الجديد المنتخب مارتين الأول Martin I

63- Belkhodja, Op cit. p 64.

64- Charles Diehl, Op cit. p 555.

65- Walter E. Kaegi, Byzantine Military Unrest 471-843, Adolf M. Hakkert Publisher, Amterdam, 1981. p 159-160.

66- Walter E. Kaegi, Muslim Expansion. p 154-155.

67- عقيدة مسيحية تؤمن بأن للمسيح طبيعة واحدة إلهية، انتشرت في أوساط مسيحيي الشرق خاصة في مصر والشام. (Bury, Op cit, Vol 1, p 358)

68- Walter E. Kaegi, Muslim Expansion. p 109.

أين تمّ إدانة كلا من المونوثيلية وإعلان Type⁶⁹. وهكذا استمرت الخلافات الدينية بين القسطنطينية والمقاطعات الغربية للإمبراطورية بما في ذلك إفريقية في اضعاف موقف الأرمنية وإمكانية التنسيق مع الامبراطور لتنظيم الدفاع عن المقاطعة ضد المسلمين.

لم تنته أزمة وحدة المشيئة إلا في عهد قسطنطين الرابع Constantine IV⁷⁰ الذي أشرف على المجمع المسكوني السادس في القسطنطينية بين 680-681م (60-61هـ) وأدى إلى إدانة مذهب المشيئة الواحدة، أين لم تعد هناك حاجة للاستمرار في هذا المذهب من أجل استقطاب أنصار الطبيعة الواحدة بعد أن أصبحوا تحت حكم العرب⁷¹، ويبدو أن هذا الإجراء كان له انعكاس إيجابي على وضعية مقاطعة إفريقية، حيث يلاحظ عودة النشاط للمقاومة البيزنطية ضد المسلمين في المنطقة بعد هذا التاريخ خاصة بفضل الدعم الذي تحصلت عليه من قبائل البربر المسيحية⁷²، إلا أن قلب السياسة الدينية للإمبراطورية من خلال إعادة التأكيد على المبادئ الكاثوليكية والخلقدونية، لم يستطع أن يحدث تحولا في الوضعية السياسية والعسكرية في شمال افريقيا، إذ أن تغيير السياسة الدينية جرى متأخرا جدا للتأثير في ديناميكية التوسع الإسلامي⁷³.

2.3- ضعف التحصينات:

عرفت مقاطعة إفريقية في ظل الحكم البيزنطي، خاصة خلال نصف القرن الذي تلا إنهاء سيطرة الوندال، إطلاق عمليات تحصين واسعة، حيث جرى خاصة في فترة الامبراطور جستنيان وحاكم المقاطعة سولومون Solomon إنشاء العديد من الحصون والمنشآت العسكرية وعمليات ترميم وبناء للأسوار حول بعض المدن عبر معظم أجزاء إفريقية البيزنطية، لكن بشكل خاص في المناطق الجنوبية والغربية من المقاطعة كما تثبتته الأدلة الأثرية، وقد استمرت هذه الجهود حتى أواخر القرن السادس الميلادي خلال

69- Warren Treadgold, Op cit. p 312-313 / The Cambridge History of the Byzantine Empire. p 231.

70- رابع أباطرة الأسرة الهرفلية حكم بين 668-685م، عرف عهده تصاعد التهديدات الخارجية لبيزنطة حيث دخل في صراع مرير مع المسلمين الذين فرضوا حصارا على القسطنطينية دام سبع سنوات، ومع السلاف والبلغار الذين هاجموا الأراضي البيزنطية في البلقان وسببوا إزعاجا كبيرا للإمبراطورية لفترة طويلة. (محمود سعيد عمران، المرجع السابق، ص 81-82).

71 - جان كلود شينيه، المرجع السابق، ص 56.

72 - حسين مؤنس، المرجع السابق، ص 160-161.

73- Walter E. Kaegi, Op cit. p 221.

فترة حكم الامبراطور موريس، أي قبل نصف قرن فقط من قدوم المسلمين إلى المنطقة، ومن أهم المدن والمواقع التي مستها عمليات التحصين قالمة Calama، مداوروش Madaura، تبسة Theveste، قفصة Capsa، عين جلولا Cululis، باجة Vaga، بغاي Baghai، خنشلة Mascula، تيمقاد Thamugadi، وسطيف Sitifis ...⁷⁴ وهذه التحصينات كان الغرض منها احتواء غارات السكان الأصليين وتوفير ملاجئ مؤقتة في مواجهة الغزاة الذين يقومون بعمليات قصيرة المدى، ولم يتم إنشاؤها ضمن أي استراتيجية لاحتواء أو دحر عمليات توغل كبرى في العمق بشكل متكرر من طرف غزاة من الشرق⁷⁵، كما يعتقد برينجل Pringle أن تصميم معظم الحصون التي تم إنشاؤها خلال الفترة البيزنطية في إفريقية لم يكن مهيئاً لحروب الحصار نتيجة لمحدودية الموارد الاقتصادية وعدم كفاءة البربر في هذا النوع من الحروب⁷⁶، كما أن توزيع أهم هذه المعاقل يبين أنها لم تصمم أساساً كحواجز ضد الغزاة أو الحملات العسكرية من الشرق أو الجنوب الشرقي، فهي تقع على مرتفعات منخفضة تتيح لها مراقبة السهول المحيطة بها، وهي محاطة بأسوار حجرية مرتفعة لحمايتها من الغارات⁷⁷.

لا توجد أي أدلة على إنشاء منشآت دفاعات بيزنطية - حصون، قلاع، خنادق - في أقصى جنوب تونس تحسباً لأي اجتياح من المسلمين⁷⁸، وهكذا يبدو أن المنطقة من إقليم طرابلس إلى مقاطعة مزاق (بيزاسينا) كانت مكشوفة ومفتوحة أمام تقدم أي جيش بري يجتاح البلاد، ولم تكن مستعدة لمثل هكذا تهديد ولا تتمتع بأي خط دفاعي عشية الفتح الإسلامي، رغم أن حاكم المقاطعة غريغوار كان يمتلك وقتاً كافياً (حوالي خمس سنوات) للقيام ببعض المشاريع الدفاعية لتأمين أراضيه قبل الاصطدام بأولى حملات المسلمين لفتح المنطقة سنة 27هـ (648م)، حيث لم تمتد عملياتهم قبل هذا التاريخ إلا لطرابلس فقط سنة 22هـ (643م)، حتى في ظل إدراكه أن الجهات الشرقية والجنوبية

74 - قام الباحث الفرنسي جون دولريا Jean Dulriat بعمل مهم في توثيق عمليات التحصين في إفريقية خلال العهد البيزنطي استناداً إلى الشواهد الأثرية من خلال النقوش التي خلدت هذه الأعمال وتحففي بأسماء الأباطرة والحكام الذين تم انجاز هذه المنشآت تحت رعايتهم، في إطار دراسة تحت عنوان *dédicaces d'ouvrages de défense dans l'Afrique byzantine*

75- Walter E. Kaegi, Muslim Expansion. p 105.

76- Alexander Sarantis and Neil Christie, War and Warfare in Late Antiquity, Brill, Leiden-Boston, 2013. p 309.

77- Walter E. Kaegi, Byzantium and the early islamic conquests. p 163.

78- Walter E. Kaegi, Muslim Expansion. p 108.

للأرخونية لم تكن تتمتع بأي حواجز طبيعية يمكن أن تساعد في الدفاع عنها والاستفادة منها في إعاقة حركة القوات المعادية، وكان هذا التهاون والسلبية في التعامل مع التهديد الإسلامي خطأ استراتيجيا كلف الأرخون حكمه وحياته معا.

طيلة حوالي عقدين بعد حملة عبد الله بن سعد 27هـ (648م)، غاب فيها المسلمون عن المنطقة، يبدو أن البيزنطيين لم يقوموا بأي مجهود ملفت لاستدراك هذا النقص وإنشاء خط دفاعي جديد لتأمين الأجزاء الجنوبية لإفريقية (مزا)، ولا حتى ترميم أسوار المدن والقلع والحصون التي كانت بها، وتعاني من أضرار معتبرة مثل سبيطة التي اختفى ذكرها تماما من أخبار المصادر بعد فتحها ما يدل على إخلائها من سكانها تماما على الأرجح، أو جلولاء التي فتحت بدورها سنة 45هـ (665م) خلال حملة معاوية بن حديج، وإذا صدقنا الرواية العربية فإن أسوارها كانت غير متماسكة إذ وقع جزء منها مباشرة مع بداية انسحاب القوات القليلة التي كانت تحاصرها ما كان سببا في وقوعها في يد المسلمين بسهولة⁷⁹.

إن هذا التقصير في تحصين مقاطعة إفريقية يرجع في الحقيقة جزئيا إلى أسباب موضوعية تتعلق بعدم استقرار الأوضاع الداخلية في المقاطعة وعلاقتها المضطربة بالقسطنطينية حتى بعد تحييد المنشق غريغوار، بالإضافة إلى عدم توفر الإمكانيات المالية الكافية لإنجاز هذه المشاريع، حيث تم نهب البلاد من طرف المسلمين خلال الحملة الأولى وجرى فرض مبلغ صلح باهظ على السكان⁸⁰، ويذكر بعض المؤرخين المعاصرين أن قائد المقاطعة الجديد جناديوس Gennadius (يرد في المصادر العربية تحت اسم جناحة وحبابة) الذي خلف غريغوار تعهد للمسلمين بدفع جزية بقيمة 330 ألف نوميسما (قطعة ذهبية) سنويا، مع الالتزام بإرسال الضرائب المعتادة إلى القسطنطينية أيضا⁸¹، ولا شك أن هذه الوضعية قد أضرت بموارد المقاطعة حد الاستنزاف ولم يبق فيها ما يمكن إنفاقه على عمليات التحصين والترميم المكلفة، حتى أن محاولة الإمبراطورية زيادة الضرائب في المقاطعة من أجل توفير الأموال اللازمة لتنظيم دفاع قوي في الأرخونية في عهد قنسطانز الثاني، أدت إلى اندلاع انتفاضة في قرطاجة أزاحت حاكم المقاطعة عن منصبه وتم الإعلان عن حاكم جديد مكانه⁸².

79- ابن عبد الحكم، المصدر السابق، ص 328.

80- ابن عبد الحكم: المصدر نفسه، ص 312.

81- Warren Treadgold, Op cit. p 312.

82- Charles Diehl, Op cit. p 479.

3.3- سلبية مواقف الأباطرة البيزنطيين:

إن التقييم الموضوعي للقدرات العسكرية للأرخونية خلال مختلف مراحل الفتح الإسلامي لإفريقية ينتهي إلى التأكيد على حقيقة عدم قدرتها التصدي لجيوش الخلافة بشكل منفرد، وهذه الوضعية المعقدة ألقت بمسؤولية لعب دور أكبر للدفاع عن المقاطعة على عاتق القسطنطينية، إذ كان من المستحيل على أهالي إفريقية بناء دفاع فعال من دون دعم عسكري وديبلوماسي من الإمبراطورية البيزنطية⁸³، لكن سياسة هذه الأخيرة تجاه الصراع في المنطقة طبعه الكثير من التردد ما يضع على عاتقها المسؤولية الأكبر لسقوط وفقدان مقاطعة إفريقية البيزنطية لصالح المسلمين في النهاية.

لم تقتصر سلبية الموقف البيزنطي، خلال بعض الفترات، في التعامل مع التهديد الإسلامي لمقاطعتها الإفريقية على عدم المبادرة والتعجيل بتقديم دعم عسكري فعال للمقاومة فيها وتركها بالتالي وحيدة تصارع المسلمين، بل امتد أيضا ليشمل تضييع فرص مواتية لاستغلال تطورات الأوضاع التي كانت تخدم مصالحها، سواء منها الإقليمية داخل دولة الخلافة أو تلك المحلية في إفريقية، فعقب موقعة سببلة مثلا لم تغتنم، طيلة عقدين كاملين تقريبا انقطعت فيها الحملات الإسلامية، فرصة عودة المقاطعة للسيادة البيزنطية رسميا بعد تحييد المنشق غريغوار على يد المسلمين في المعركة، بالتزامن مع دخول دولة الخلافة في فترة عدم استقرار داخلي بعد انزلاق المسلمين إلى حرب أهلية شغلته لسنوات طويلة عن أي تحرك عسكري خارجي، من أجل إعادة تنظيم مقاطعتها الإفريقية وبناء منظومة عسكرية وسياسية فعالة فيها للتصدي للمسلمين في حالة عودتهم وبعث نشاطهم الحربي في المنطقة. وقد جاء تحرك الإمبراطور أخيرا لمواجهة التهديدات في الغرب متأخرا، حيث تزامن انتقال قنسطانز الثاني إلى صقلية والاستقرار بها سنة 664م (44هـ)⁸⁴، مع حوالي عشرين ألفا من رجال جيشه الآسيويين وقسم كبير من أسطوله⁸⁵، أين اتخذ من مدينة سيراكيوز Syracuse مركزا له، وهي ميناء جيد يتيح وصول سهل لإيطاليا وإفريقية⁸⁶، ما يعني نظريا قدرة الإمبراطور على تهديد جيوش المسلمين التي يمكن أن تستهدف إفريقية من خلال قطع خطوط إمدادها عبر إنزال بحري خلفها في

83- Walter E. Kaegi, Byzantium and the early islamic conquests. p 169.

84- Timothy Venning, Op cit, p 174.

85- أرشيبالد لويس، القوى البحرية والتجارية في البحر المتوسط 500-1100 م، ترجمة أحمد محمد عيسى، مراجعة وتقديم محمد شفيق غربال، مكتبة النهضة العربية، القاهرة، ص 94.

86- Warren treadgold, Op cit. 319.

إقليم طرابلس مع ما يتوفر عليه من قوة معتبرة وبحرية مقتدرة، تزامن مع استرجاع المسلمين وحدتهم السياسية مع قيام الدولة الأموية سنة 41هـ (661م) وإحياء مشاريع الفتح في المنطقة.

يجادل بعض المؤرخين أن الامبراطور قنسطانز الثاني قام بعد استقراره في صقلية ببعض الجهود لتنظيم دفاع قوي في أرخونية إفريقية، لكن هذه الأهداف الكبرى كانت تكلف مبالغ باهظة، والأموال كانت قليلة ومن أجل توفيرها قام الامبراطور بسحق جنوب إيطاليا وصقلية وسردينيا وإفريقية بالضرائب، حتى أنه صادر ممتلكات الكنائس⁸⁷، وقد وجدت مطالباته المالية معارضة في إفريقية حيث رفض حاكمها جناديوس دفع المبالغ الإضافية التي طلبها قنسطانز ما تسبب في تمرد جنود المقاطعة ضده بتحريض من الامبراطور⁸⁸، وقد أوجع هذا الأمر الاضطرابات في إفريقية، ويبدو أن السياسة الضريبية للامبراطور فيها قد أضرت كثيرا بموقفه وأفقدته دعم وتعاطف السكان المحليين، ويذكر مصدر مهم من إيطاليا *Liber Pontificalis* أن البيزنطيين تحت حكم قنسطانز الثاني كانوا ممقوتين بسبب تجريدهم الكنائس في إفريقية -كما في إيطاليا وصقلية- من ثرواتها. كل هذا أدى إلى اضطراب وحتى تسميم الوضع في شمال إفريقيا (إفريقية) عشية وطيلة الغزو الإسلامي⁸⁹، حيث لم يعد هناك فرق بين الابتزاز الذي يقوم به الامبراطور وفرض المسلمين جزية باهظة مقابل تأمين السكان، وهذا الأمر من دون شك قد أضعف فرص التنسيق بين الطرفين لتنظيم المقاومة في مواجهة التهديد الإسلامي.

إن تواجد قنسطانز الثاني في صقلية قد أتاح له مراقبة الأوضاع في إفريقية عن كثب، وسرعة التحرك ضد المسلمين في حال تهديدهم المنطقة، وعندما قررت الدولة الأموية تجريد حملة ضد إفريقية بقيادة معاوية بن حديج سنة 45هـ (665م)، استطاع الامبراطور من صقلية إرسال جيش لدعم المقاطعة، لكن قائده نقفور Nicephorus انهزم أمام العرب واندحر⁹⁰، وتبالغ المصادر الإسلامية كثيرا -كالعادة- في تقدير حجم الجيش البيزنطي، وتحدده بثلاثين ألف مقاتل، وتذكر أن هذه الحملة نزلت في سوسة أو بالقرب منها عند منطقة تسميها سنطيرية⁹¹.

87- Charles Diehl, Op cit. p 569.

88- Warren Treadgold, Op cit. p 319-320.

89- Walter E. Kaegi, Muslim expansion .p 187-189.

90- Warren Treadgold, Op cit. p 320.

91- ابن عذاري المصدر السابق، مج 1، ص 40 / النويري شهاب الدين، نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق عبد المجيد ترحيني وآخرون، ج 24، ط 1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2004، ص 10.

لاحقاً سنة 668م (48هـ) تم اغتيال قنسطانز الثاني في صقلية وأعلن أحد قادة الجيش نفسه امبراطوراً ما استدعى قيام قسطنطين (ابن الامبراطور المتوفى) بحملة على الجزيرة لاحتواء الأمر⁹²، وانتقل جزء من أفضل القوات البيزنطية المتبقية في إفريقية إلى صقلية من أجل المساهمة في قمع التمرد⁹³، وهو ما ترك الأرخونية من دون حماية كافية، ويبدو منطقياً أن هذه القوات لم تترك صقلية للالتحاق بقواعدها في إفريقية من جديد إلا عقب مغادرة قسطنطين الرابع ابن الامبراطور المغدور للجزيرة عائداً إلى القسطنطينية بعد أن ثبت مركزه في السلطة وعاقب المشتركين في التمرد، وكان ذلك في ربيع سنة 669م (49هـ)⁹⁴. وهذا ما يفسر ربما السلبية التي طبعت تعامل البيزنطيين مع الخطوة الخطيرة التي قام بها المسلمون عندما بدأوا تأسيس قاعدة لهم (القيروان) في قلب مزاق على يد عقبة بن نافع في الفترة بين 50-55هـ (670-674م)⁹⁵، وهكذا فرضت حركات التمرد داخل الإمبراطورية مرة أخرى نفسها كعامل مؤثر في قدرة بيزنطة على التعامل مع التهديد الإسلامي لمقاطعتها الإفريقية.

كان توقيت مباشرة المسلمين إنشاء قاعدة لهم في إفريقية وتثبيت سيطرتهم على المنطقة سيئاً جداً بالنسبة للإمبراطورية البيزنطية، حيث تزامن مع قيام دولة الخلافة بأول محاولة جدية لفتح القسطنطينية، عندما فرضت القوات الإسلامية حصاراً على المدينة استمر سبع سنوات كاملة انطلاقاً من قاعدة العمليات التي أنشأتها في شبه جزيرة كزيكوس Kyzikos⁹⁶ على بحر مرمرة، بالإضافة إلى التقدم الذي حققه السلاف Slavs في البلقان ومهاجمتهم تسالونيك Thessalonica سنة 677م (57هـ) ما استدعى قيام

92- Timothy Venning, Op cit. p 175.

93- Walter E. Kaegi, Muslim Expansion. p 159.

94- Timothy Venning, Op cit. p 176.

95 - هشام جعيط، المرجع السابق، ص 18.

96- Nikephoros, Short History, Translation and Commentary by Cyrill Mango, Dumbarton Oaks, Washington D.C. 1990. p 85-87 / Theophanes, The Chronicle of Theophanes Confessor, Byzantine and Near Eastern History AD 284-813, Translated with introduction and commentary by Cyrill Mango and Roger Scott. Clarendon press. Oxford 1997. p 493-494.

يعتقد محققاً الكتاب (تاريخ يوفانس) والتر إميل، وسيريل مانغو أن هذا الحدث (حصار القسطنطينية) لم يكن حصاراً بالمعنى الدقيق وإنما مجرد سلسلة من الاشتباكات بين الطرفين عند المدينة، وأنه دام خمس سنوات فقط (674-678م) وليس سبع سنوات كما تذهب إليه المصادر. (Theophanes, Ibid, p 494)

الامبراطور بتحرك عسكري ضدهم⁹⁷، وهكذا وجدت بيزنطة نفسها في وضع دقيق أُجبرت فيه على الدفاع عن ممتلكاتها وعاصمتها أمام تهديد حيوي في الشرق أشغلها عن تقديم الدعم لإفريقية في الغرب في مواجهة الخطوة الخطيرة التي قام بها المسلمون في المنطقة مع تأسيس القيروان، والتي سمحت لهم بعد ذلك بفترة قصيرة توجيه عملياتهم نحو المناطق الشمالية من المقاطعة واحتلال بعضها (جزيرة "شريك") واستهداف العاصمة قرطاجنة (قرطاجنة) نفسها لأول مرة⁹⁸.

عرفت الدولة الأموية بعد موت يزيد بن معاوية⁹⁹ سنة 64هـ (683م) فترة عدم استقرار وصراعات داخلية استمرت حوالي عقد من الزمن أشغلتها عن كل تحرك خارجي وانقطعت الجيوش الإسلامية عن إفريقية مدة أكثر من عشر سنوات¹⁰⁰، فأصبحت بذلك الظروف مواتية لبيزنطة لتحقيق تقدم على حساب المسلمين في إفريقية خاصة بعد التداعيات التي أعقبت مقتل عقبة بن نافع على يد البربر سنة 63هـ (683م) وإخلاء المسلمين مواقعهم بالمنطقة وتراجعهم إلى برقة، حيث أصبحت القيروان من دون حماية فعلية منذ سقوطها في يد كسيلة وانسحاب المسلمين منها¹⁰¹، لكن تصاعد التهديد البلغاري في البلقان حرم بيزنطة من الاستفادة من هذه التطورات الطارئة داخل دولة الخلافة وعلى مستوى إفريقية لإنهاء التواجد الإسلامي بمقاطعتها، إذ أن تعاضم خطر البلغار في البلقان منذ بدايات ثمانينات القرن السابع وضع مزيدا من الضغط على بيزنطة وتطلب إعادة توزيع القوات الثمينة والشحيحة، جاعلا من الصعب على القسطنطينية

97- Warren Treadgold, Op cit. p 326 / Timothy Venning, Op cit. p 178.

98- خليفة بن خياط، المصدر السابق، ص 226 / الهالكي، المصدر السابق، ج 1، ص 31.
99- ثاني خلفاء بني أمية، تولى الخلافة بعد وفاة أبيه معاوية بن أبي سفيان بعهد منه، دام حكمه لفترة قصيرة بين 60-64هـ/680-683م، كان يُطعن في التزامه الديني والأخلاقي، شهد عهده أحداثا منكرة كقتل الحسين بن علي، واستباحة المدينة وقتل عدد من أهلها، ورمي الكعبة بالمنجنيق. (البلاذري، أحمد بن يحيى ت 279هـ، أنساب الأشراف، تحقيق سهيل زكار ورياض زركلي، ط 1، دار الفكر، بيروت، 1996، ج 3، ص 368؛ ج 5، ص 299).

100- الفترة ما بين حملة عقبة بن نافع 63هـ/683م ودخول حسان بن النعمان سنة 74هـ/693م، أما حملة زهير بن قيس البلوي سنة 69هـ/688-689م فلم تكن إلا عملية انتقامية ضد كسيلة والبربر بعد قتلهم عقبة، ولم تشكل أي تهديد مباشر للبيزنطيين في المنطقة.

101- تذكر المصادر أن الجيش الذي قاده زهير بن قيس لمواجهة كسيلة كان يضم ستة آلاف رجل فقط، وبعد انجاز المهمة انسحب نحو برقة وترك قسم من أصحابه في القيروان لتأمينها، وبالتالي لا يمكن أن يكون عدد أفراد الحامية بها كبيرا. (الهالكي، المصدر السابق، ج 1، ص 45-46).

توفير الموارد البشرية والمادية الكافية لإرسالها للدفاع عما بقي من أراضيها وسيادتها في إفريقيا الشمالية¹⁰².

هكذا أضاعت بيزنطة آخر فرصة حقيقية سانحة لتغيير مجرى الصراع مع المسلمين في إفريقية، إذ استطاعت الدولة الأموية تجاوز حالة الاضطراب الداخلي بعد القضاء على عبد الله بن زبير في مكة سنة 73 هـ (693م)¹⁰³ ما سمح لها بوضع إمكانيات مادية وعسكرية معتبرة لحسم المواجهة مع بيزنطة في الغرب¹⁰⁴، وقبل نهاية العقد الثامن الهجري (نهاية القرن السادس الميلادي) كانت قرطاجة ومعظم أجزاء إفريقية قد سقطت في يد المسلمين واندثر الحكم البيزنطي فيها نهائياً، أما الحملة البحرية الضخمة التي أرسلها الامبراطور المغتصب للعرش ليونتيوس Leontios¹⁰⁵ بقيادة البطريق المقتدر يوحنا John لاسترجاع قرطاجة سنة 697م (78هـ)، والتي مثلت آخر مجهود قامت به الإمبراطورية لإنقاذ مقاطعتها، رغم نجاحها الظرفي في طرد المسلمين واستعادة المدينة وبعض المواقع والحصون الأخرى¹⁰⁶، إلا أنها جاءت متأخرة جداً ولم يكن لها أن تغير شيئاً في مصير إفريقية، إذ أن مجرى الأحداث كان قد حسم الصراع لصالح المسلمين.

إن سقوط قرطاجة كان منطقياً في الحقيقة، فالتهديد الكبير الذي كانت تواجهه الإمبراطورية البيزنطية في الشرق من طرف البلغار، والسلاف، وخاصة من طرف المسلمين، قد حدّ من قدرتها على المناورة، وانتهى بها ترتيب الأولويات الأمنية والاستراتيجية في ظل إمكانياتها المحدودة إلى التركيز على حماية أقاليمها القريبة في آسيا الصغرى والبلقان على حساب ممتلكاتها البعيدة في إفريقية، ونجد لهذه الأولويات والجو العام السائد حينها صدى حتى في المصادر الأدبية التاريخية البيزنطية التي تهمل بشكل شبه كلي تطورات الأوضاع والصراع في إفريقية خلال تلك الفترة مع تركيزها على الأحداث في الشرق، فثيوفانس المعروف Theophanes مثلاً، الذي تمثل حوليته المصدر الرئيسي للتاريخ البيزنطي خلال القرن السابع الميلادي، نجده حريصاً على تسجيل حملات

102- Walter E. Kaegi, Muslim Expansion. p 223.

103- خليفة، المصدر السابق، ص 269.

104- ابن عذاري، المصدر السابق، مج 1، ص 60.

105- قائد في الجيش البيزنطي، قاد انقلاباً ضد الامبراطور جستنيان الثاني سنة 695م (76هـ) واستولى على الحكم، شهد عهده القصير نهاية نفوذ بيزنطة في إفريقية بعد نجاح المسلمين في فتح عاصمتها قرطاجة سنة 697م (78هـ)، تم خلع من منصبه بعد التمرد الذي قاده تيرپيوس سنة 698م (79هـ) على خلفية فشل الحملة البحرية لاسترجاع قرطاجة. (محمود سعيد عمران، المرجع السابق، ص 84).

106- Theophanes, Op cit, p 516.

المسلمين على آسيا الصغرى سنويا وأسماء قادتها ومجال نشاطها والنتائج التي حققتها في كتابه، حتى تلك العادية والروتينية، لا يورد في المقابل عن الصراع بين المسلمين والبيزنطيين في إفريقية إلا خبرين دون تفاصيل كثيرة حول عمليات الأسر الواسعة التي قام بها المسلمون في حق السكان المحليين، واستيلائهم على عاصمة المقاطعة قرطاجة¹⁰⁷، وهذا له دلالة.

يعتقد والتر كايجي Walter Kaegi أن الفتن والصراعات الداخلية هي العامل الأساسي في تقدم العرب على حساب البيزنطيين، حيث يرى أن ثورة غريغوار في إفريقية 647-646م (25-26هـ) ساعدت العرب على اجتياح بيزاسينا، وأن ثورة أبسيمار Apsimar (الذي تلقب بتييريوس الثالث Tiberius III) ضد الامبراطور ليونتيوس سنة 698م (79هـ) هي التي أدت إلى خسارة قرطاجة وبقية إفريقية لصالح العرب نهائياً¹⁰⁸.

4.3- عدم فعالية التحالف البيزنطي-البربري:

كان التحالف مع البربر أحد الاستراتيجيات الرئيسية التي وظفتها القيادة المحلية على مستوى إفريقية البيزنطية، نظرا للظروف التي كانت تمر بها المقاطعة، في مواجهة المد الاسلامي، لكن الأحداث التي عرفتها المنطقة أثبتت هشاشة هذا التحالف الذي لم يكن على ما يبدو موثوقا إلى الحد الذي يسمح له بالصمود أمام اختبار الجيوش الإسلامية.

كانت سيطرة أولى المواجهات التي خاض فيها البربر الصراع بجانب القوات البيزنطية ضد المسلمين، ويبدو أنهم لم يشهدوا نهاية المعركة إذ قرروا الانسحاب بعد بدايتها بقليل، وحسب مصدر اسباني فإن سبب النهاية الكارثية لهذه المواجهة يعود للهروب المتسرع لقوات البربر Moorish troops ما أدى إلى تحطيم النخبة المحلية في جيش غريغوار، ويفسر والتر كايجي هذا الأمر بنمط القتال الذي اعتاد عليه البربر، حيث أنهم كانوا ينفرون من المواجهة المباشرة المفتوحة، وبالتالي لم يصمدوا أمام قوات المسلمين المنضبطة¹⁰⁹.

مع بداية استهداف المسلمين للمناطق الخاصة بالبربر في النصف الثاني للقرن الأول الهجري يمكن ملاحظة أن التحالف البيزنطي-البربري سيصبح أكثر تماسكا، إذ استغلت بيزنطة هذا الأمر واستطاعت بفضل ديبلوماسيتها تأكيد التحالف مع البربر، فاستقبلت قبائل الأوراس حاميات بيزنطية في قلاعها مثل بادس وتهودة، وطلب سكان

107- Theophanes, Op cit. p 491-516.

108- Walter E. Kaegi, Byzantine Military Unrest. p 298-299.

109- Walter E. Kaegi, Muslim Expansion. p 126-127-132.

الزباب المساعدة من حاكم قرطاجة وتحصوا عليها، وحتى في موريطانيا البعيدة ساعدت بعض الفرق البيزنطية البربر في الدفاع عن تاهرت ضد عقبة¹¹⁰، وبالفعل نسجل أن المقاومة ضد القوات الإسلامية بقيادة عقبة في حملته نحو الغرب أصبحت أكثر شراسة ورغم أن المصادر العربية تعدد انتصارات عقبة الكاسحة على خصومه إلا أنها لا تغفل الإشارة أيضا إلى قوة المقاومة التي صادفها، كما أنها لا تخفي عجز عقبة عن الاستيلاء على أي مدينة استهدفها خلال حملته، وقد استطاع البربر بدعم من البيزنطيين إلحاق أول هزيمة بالمسلمين في المنطقة (معركة تهودة 63هـ/683م) وطردهم من القيروان ما أتاح لإفريقية عشر سنوات من الهدوء¹¹¹، عرفت فيها العلاقات بين البيزنطيين والبربر انسجاما تاما على ما يبدو، ولا نستبعد أن كسيلة قد استقبل خلال هذه الفترة بعض الحاميات البيزنطية في المناطق التي سيطر عليها، وعلى هذا الأساس ربما استنتج صاحب كتاب الباباوات أنه حوالي سنة 685م (65-66هـ) «خضعت كل إفريقية من جديد للإمبراطورية البيزنطية»¹¹².

تعرض التماسك البيزنطي-البربري لانتكاسة كبيرة أمام أول تحدٍّ واجهه مع عودة المسلمين للظهور من جديد في المنطقة، ونسجل في هذا الصدد رواية ذات دلالة ينفرد بذكرها المالكي لكنها بحاجة إلى ما يدعمها في المصادر الأخرى، يذكر فيها أن البيزنطيين (الروم) تخلوا في معركة ممس عن حليفهم كسيلة، وهو بصدد الاشتباك مع المسلمين في صدام سيحدد مصير المنطقة، حيث استجاب البيزنطيون بسرعة لطلب زهير بن قيس الهدنة وانسحبوا تاركين كسيلة والبربر لوحدهم في مواجهة المسلمين ما تسبب في إلحاق هزيمة ساحقة بهم لقي فيها زعيم البربر وكبار قادته حتفهم¹¹³، رغم أن مصلحة البيزنطيين الحيوية كانت من دون شك في دعم البربر لإبقاء العرب بعيدا عن إفريقية، وهزيمة زهير بن قيس كانت ستبعدهم لسنوات عديدة لاحقة إذا ما أخذنا بعين الاعتبار وضعية دولة الخلافة حينها وعدم قدرتها على توظيف قدراتها الحربية على المستوى الخارجي في ظل انشغالها بالفتن الداخلية.

آخر مشاهد التحالف المؤقتة في المصادر بين البيزنطيين والبربر نسجلها في المواجهات التي دارت في الشمال عند إقليم صطفورة، بعد احتلال المسلمين لقرطاجة بوقت قصير، حيث تجمعت فلول البيزنطيين وانضم إليهم البربر، وبعد معارك عنيفة مع

110- Charles Diehl, Op cit. p 576.

111- Ibid. p 580.

112- Ibid. p 581-582.

113- المالكي، المصدر السابق، ج 1، ص 44.

المسلمين استطاعوا فيها إلحاق خسائر معتبرة بهم، تمكن حسان بن النعمان من هزيمتهم أخيراً، وكما في العديد من المرات لم يحافظ الطرفين على تماسكهم حيث فرّ البيزنطيون إلى مدينة باجة للاحتباء بها في حين التجأ البربر إلى منطقة بونة¹¹⁴.

رغم حيوية التحالف بالنسبة للبيزنطيين والبربر معا في مواجهة خصمهم المشترك، والنجاحات الظرفية التي حققها في مواجهة المسلمين خلال بعض الفترات، إلا أنه لم يكن أبداً متماسكا بالقدر الذي يمكن أن يغيّر مجرى الأحداث في المنطقة، وتعود هذه الهشاشة في الحقيقة إلى عدة عوامل موضوعية شملت مستويات تنظيمية ونفسية وتاريخية منها:

أولاً: اختلاف أساليب القتال بين الطرفين، ففي حين كان البيزنطيون يستطيعون القتال في تشكيلات ومواجهات مفتوحة مع خصومهم، كان البربر ينفرون من هذا الأسلوب في القتال¹¹⁵، ويفضلون توظيف تكتيكات المواجهة غير المباشرة من خلال حرب العصابات والكمائن والاستنزاف في مواجهة أعدائهم¹¹⁶، وهذه الفوارق في أساليب القتال بين الحليفين أضعفت القيمة العسكرية لهذا التحالف نتيجة عدم الانسجام بينهما في المعارك وصعوبة تنسيق عمليات القتال جنبا إلى جنب.

ثانياً: تفكك السلطة البيزنطية في مقاطعة إفريقية والضعف الواضح الذي أبدته في مواجهة المسلمين ما ألحق الضرر الشديد بهيبتها، وزعزع ثقة البربر في قدرة البيزنطيين على المواجهة والصمود ما أثر على التزامهم تجاه شركائهم في المقاومة.

ثالثاً: استحالة التعايش الدائم بين البربر والبيزنطيين الذين كانوا يمثلون قوة احتلال أيضاً في نظر السكان المحليين، يعزز ذلك ذكرى المقاومة والثورات العنيفة التي قام بها أجدادهم ضد المحتل الجديد ولم تهدأ إلا قبل قدوم العرب بنصف قرن فقط.

رابعاً: تأثير تجارب الماضي بين البيزنطيين والبربر على العلاقات بين الطرفين، والتي ربما ألقت بظلالها على الثقة المتبادلة بينهما، إذ لم تكن العلاقات بين بيزنطة والسكان المحليين دائماً جيدة، وربما كان بعض قادة السكان الأصليين في القرن السابع

114 - المالكي، المصدر السابق، ج 1، ص 49.

115- Walter E. Kaegi, Muslim Expansion. p 132.

116- حول أساليب القتال التي يطبقها البربر (كالتجسس وطفوها في مواجهة البيزنطيين في القرن السادس الميلادي) يمكن مراجعة: Charles Diehl, Op cit. p 59-60-61

ما زالوا يتذكرون الأحداث من القرن السابق عندما غدر البيزنطيون بأسلافهم كما حدث سنة 544م مثلاً عندما قتلوا العديد منهم في اجتماع كانوا قد دعواهم إليه¹¹⁷.

الخاتمة:

واجهت مقاطعة إفريقية البيزنطية ضغطاً إسلامياً كبيراً طيلة نصف قرن من المواجهات بين الطرفين، حاولت خلالها بناء استراتيجية دفاعية متكاملة في مواجهة حملات المسلمين المتكررة لفتح المنطقة، من خلال توظيف أساليب متعددة تتماشى مع إمكانياتها المحدودة في محاولتها الصمود أمام تقدم العرب، إذ لجأت في ظل التفوق العسكري الصريح للمسلمين إلى تجنب المواجهة المباشرة مع جيوش الخلافة، واستمالة البربر والتحالف معهم لتعديل موازين القوة مع خصومها المسلمين. لكن كل الإجراءات والمجهودات التي بذلتها لم تسعفها في النهاية لتجنب السقوط أمام المد الإسلامي، إذ أن الخلافات الدينية مع بيزنطة التي أضعفت روابط المقاطعة مع القسطنطينية طيلة حوالي ربع قرن، وسلبية مواقف بعض أباطرة الإمبراطورية البيزنطية من الصراع في المنطقة، وكذا هشاشة وعدم فعالية التحالف مع البربر، كلها أسباب ساهمت في فشل المقاومة وعدم قدرة الأرخونية على تفادي مصير الاندثار.

قائمة المصادر والمراجع:

- الإدريسي محمد بن محمد، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2002.
- أرشيبالد لويس، القوى البحرية والتجارية في البحر المتوسط 500-1100 م، ترجمة أحمد محمد عيسى، مراجعة وتقديم محمد شفيق غربال، مكتبة النهضة العربية، القاهرة.
- البكري أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز، المسالك والممالك، تحقيق جمال طلبة، ط 1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2003.
- البلاذري أحمد بن يحيى، أنساب الأشراف، تحقيق سهيل زكار ورياض زركلي، ط 1، دار الفكر، بيروت، 1996.
- حارث محمد الهادي، التاريخ المغاربي القديم، المؤسسة الجزائرية للطباعة.
- أبو الجدايل عائشة سعيد، الإمبراطورية البيزنطية في القرن السابع الميلادي (الأول الهجري)، دراسة في التطورات والتغيرات، ط 1، دار المفردات للنشر والتوزيع، الرياض، 1995.
- جعيط هشام، تأسيس الغرب الإسلامي، دار الطليعة، بيروت، ط 2، 2008.
- خليفة بن خياط العصفري، تاريخ خليفة بن خياط، تحقيق أكرم ضياء العمري، دار طيبة، الرياض، ط 2، 1985.
- الرقيق القيرواني، تاريخ إفريقية والمغرب، تقديم وتحقيق محمد زينهم محمد عزب، دار الفرجاني للنشر والتوزيع، القاهرة، ط 1، 1994.

117- Walter E. Kaegi, Muslim Expansion. p 159.

- شينيه جان كلود، تاريخ بيزنطية، ترجمة جورج زيناتي، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ط 1، 2008.
 - ابن عبد الحكم عبد الرحمن، فتوح مصر وأخبارها، تحقيق وتقديم محمد الحجيري، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط 1، 1996.
 - العروي عبد الله، مجمل تاريخ المغرب، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء-بيروت، ط 5، 1996.
 - عمران محمود سعيد، معالم تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، دار لمعرفة الجامعة، الإسكندرية، 2000.
 - ابن عذاري أحمد بن محمد، البيان المغرب في اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب، تحقيق بشار - عواد معروف ومحمود بشار عواد، دار الغرب الإسلامي، تونس، ط 1، 2013.
 - المالكي عبد الله بن محمد، رياض النفوس، حققه بشير البكوش، راجعه محمد العروسي المطوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط 2، 1994.
 - مؤنس حسين، فتح العرب للمغرب، مكتبة الثقافة الدينية.
 - النويري شهاب الدين، نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق عبد المجيد ترحيني وآخرون، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 2004.
 - ياقوت الحموي شهاب الدين، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، 1977.
- المراجع الأجنبية:
- Alexander Sarantis and Neil Christie, War and Warfare in Late Antiquity, Brill, Leiden-Boston, 2013.
 - Belkhodja, L'Afrique byzantine à la fin du VIe et au début du VIIe siècle, Revue de l'occident musulman et de la méditerranée, N° 8, 1970.
 - Charles Diehl, L'Afrique Byzantine, Histoire de la domination Byzantine en Afrique (533-709), Ernest Leroux, Paris, 1896.
 - George Ostrogorsky, History of the Byzantine State, Translated by Joan Hussey, Basil Blackwell. Oxford, 1968.
 - J. B. Bury, A History of Later Roman Empire, Macmillan and co, London 1889.
 - N. Stratos, Byzantium in the seventh century, V 5, Adolf M. Hakkert, Amsterdam, 1980.
 - Nikephoros, Short History, Translation and Commentary by Cyrill Mango, Dumbarton Oaks, Washington D.C. 1990.
 - The Cambridge history of islam, Edited by P. M. Holt, ANN K. S. Lambton, Bernard Lewis Volume 2A, Cambridge University Press, UK.
 - The cambridge History of the Byzantine Empire c. 500-1492, Edited by Jonathan Shepard, Cambridge University Press, UK 2008.
 - Theophanes, The Chronicle of Theophanes Confessor, Byzantine and Near Eastern History AD 284-813, Translated with introduction and commentary by Cyrill Mango and Roger Scott. Clarendon press. Oxford 1997.

- Timothy Venning, A Chronology of the Byzantine Empire, Palgrave Macmillan, New York 2006.
- Walter E. Kaegi : Heraclius Emperor of Byzantium, Cambridge University Press, United Kingdom, 2003.
- Walter E. Kaegi, Byzantine Military Unrest 471-843, Adolf M. Hakkert Publisher, Amsterdam, 1981.
- Walter E. Kaegi, Byzantium and the early islamic conquests, Cambridge University Press.
- Walter E. Kaegi, Muslim Expansion and Byzantine Collapse in North Africa, Cambridge University Press, New York, 2010.
- Warren Treadgold, A History of Byzantine State and Society, Stanford University Press, California, 1997.